ليـالي السّمـر بـالأنـدلس

بقلم د. أبو القاسم درارجة

أندلسية شفراء ذات عينين زرقاوين، متوسطة القامة، مزدوجة اللغة... آلت على نفسها أن تكرس حياتها للشعراء وأشعارهم، وأي شعر تريد؟. هي أندلسية الأصل والثقافة، ولكن حنينها إلى غرناطة بالذات يطغى عليها أكثر من غيرها، وهي تريد أن تغرف من النبع لا من الفرع...(*)

الدكتوراه «ثيليـا» الغرناطية وُلِدت في النصف الأخير من هذا القرن بـ «مُتْرِيل» تلك القرية الوديعة التي تِقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وهي تابعة لـ «شَلُوبِرْنِيَة» تلك البلدة التي ارتبط اسمها باسم العالم الجليل أبو عليّ الشلوبيني، وشلوبينية تقع على البحر أيضاً وهي تابعة إلى ولاية غرناطة، منذ زمان أبي علي الشلوبيني (1) إلى يومنا هذا. إذاً فـ «ثيليا» وُلِدَتَ هناك وترعرعت ودرست بغرناطة وبالضبط في حي الزايدين الواقع في سفوح هضبة الحمراء، وعلى ضفة وادي «شنَيل» (اَلْفَ نِيلٍ). تتلمذت عن أساتذة أجلاء، منهم من درست عليه مباشرة، ومنهم من درست عليه بطريقة غير مباشرة، ومن الصنف الثاني الذي أثّر فيها أكثر من غيره وتعتبره المصدر والمنبع هو الأستاذ اَلْمَقَّرِي، ذلك العملاق الذي انحدر من مقّرة في لاد الحُضْنَةِ والذي نشأ وترعرع بتلمسان... كيف تتلمذت عليه، وأي

(*) أنظر ثيليه دي المرال: ***Celia Del Moral Molina***

Un poeta grunadino del s. XII : ABU YAcFAR Ibn SAcTD. GRANADA 1987

ترجمنا منه عدة فقرات هامة في هذا البحث من الأسبانية إلى العربية وأضفنا لها أشعاراً أخرى.

علاقة تربطها به؟ تلمذت عليه عندما كانت تتساءل كيف تستطيع أن تنبش التراث وتعيد الروابط... وكان هو قد أجاب ويجيب عن هذه التساؤلات التي كانت تخامر أمثالها. تلك الأجوبة التي تعدّى صداها حدود وطنه الأم حيث أصبحت من أهم مصادر الحضارة بالنسبة للعدوتين...

أما عن العلاقة التي تربطها وإياه، فقد تمت عن طريق انتاجه الفكري.. ذلك الانتاج الذي أراد من خلاله أن يعرف الأجيال القادمة واللاحقة بقيمة التراث العريق.. ولقد اعتبر ذلك الجهد اعترافاً بالجميل لرجال الفكر الأندلسي وما قدّموه من أعمال جليلة تضيء الطريق للأجيال حتى لا تتيه في الظلام!!. ماذا درست عنه هذه الغرناطية يا ترى؟ لقد درست تلك الأعمال التي تقع في عشرة أجزاء ـ نالت بها درجة الدكتوراه ـ والتي عنوانها: «نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب».

ودرست أيضاً: «أغصان الرياض في أخبار القاضي عياض» (تغمد الله الاثنين برحمته الواسعة). ماذا وجدت في هذين المصدرين؟ لقد وجدت ضالتها، تلك المعلومات القيّمة حول ابن الخطيب وأعماله التي تجاوزت شهرتها الآفاق. وما علاقتها هي بابن الخطيب؟ ابن الخطيب وُلِدَ وترعرع في «لُوشَة» تلك القرية التي تقع في أحواز غرناطة، وقضى معظم حياته في عين الدَّمْع بجانب فجّ اللّوز الواقع في الناحية الجنوبية من حي الْبَيَّازِين، وحي الخليفة من الشمال، ولقد ترك أعمالاً ومؤلفات في جميع الفنون من الأدب إلى الطب. وهل هذه الشقراء يهمها الطب والأدب؟. إنها تريد كل شيء يعيد الحياة إلى التراث، والتراث بعيد الحياة إلى غرناطة نفسها... هل ركزت على كتابه «أعمال الأعلام»؟. كلّا... لقد جلب انتباهها عنوان آخر يتضمن الروابط التي تربطها به... وجدت «الإحاطة في أخبار غرناطة» ومن خلال هذا الكتاب عرفت غرناطة على حقيقتها، غرناطة بأحيائها وجنّاتها.. بأفراحها وأقراحها... بانتصاراتها وانكساراتها... فماذا تريد هذه الغرناطية أن تعمل؟ وكيف تستطيع أن ترمم ما هدّمته يد الإنسان على مرّ الزمان؟ هي تريد أن تربط الماضي بالحاضر وتعيد إلى الأذهان بأن ما يقام الآن من حفلات وأسمار في الأدواج والمنتزهات إنما يعود الفضل إلى بناة الحمراء!. تلك المدينة التي وصفها ابن الجياب في قصيدة [2].

قـــد شرّف الحمـــراء بـــرجُ مشرفُ
في الجو دبّـــره الإمَـــامُ الأشْرَفُ

ـ وقال لسان الدين في سكانها ما يلي:

يـــا داخـــل بـــالله قف وتـــأمـــل
في بهجـــة الحسن البـــديـــع الأكمـــل
سرّح بطـــرفك في محاسن منـــزل
عبِقَت لنـــا نفحـــاتها كـــالمنـــدل
وإذا نظـــرت إلى الحقيقـــة قلت لي
السّـــرّ في السّكّـــان لا في المنـــزل

ما علاقتي أنا بهذه الغرناطية، وأي رابطة تربطني بابن الخطيب؟ وأنا الذي ولدت في مكان بعيد عن الأندلس والأندلسيين، ألست أنا القائل عندما كنت أتجول في أرض ابن الخطيب:

أحنّ إلى الأوراس في كـــل موطن
حنين الغـــريب للأهـــل وللأم
ومـــا ذاك إلا أن حبي رضيعـــه
وهـــل ينسى الـــرضيـــع حبّـــه للأم

إن الروابط عديدة لا تحصى، لكن أريد أن أشير إلى شيء جدّ بسيط، هو أن مَقَّرَة توجد في الحضنة شأنها شأن طُبْنَة وبلدية أوْلاَد الدّراج ومسيلة، وهذه المدن لا يفصلها فاصل عن الأوراس ولا عن تلمسان لا من حيث التاريخ ولا الثقافة، وهذه المدن كلها قِلعٌ حصينة وديار إسلامية متينة، ويكفيها فخرا أنها استقبلت طلائع عقبة واستقبلت أيضاً طلائع نوفمبر الذي أعَادَ لنا النِصاب!!.

فالأستاذ المقري عملاق وله قدم وساق في أعماق تراث الأباء والأجداد، وتتلمذ بطريقة غير مباشرة عن لسان الدين ابن الخطيب وهذا الأخير تتلمذ على أستاذين جليلين أحدهما شاعر فحل والثاني أديب ومؤرخ وكلاهما من تلمسان [3]

لقد أثّرا هذان الأستاذان في ابن الخطيب أشد التأثير، لهذه الأسباب كتبت الغرناطية وتكتب عن الأندلس، ولهذه الأسباب نفسها أكتب أنا هذه السطور عنها وعن الأندلسيين. وذلك أننا نُرْوى من منبع واحد، وننتمي إلى مدرسة واحدة، أو قُل نَغْرِفُ من إناء واحد، ماذا تكتب هذه الغرناطية عن هؤلاء الشعراء، وما أكثرهم؟، هي تكتب عن شُعراء غرناطة فقط، وتترك قرطبة للقرطبيات وأشبيلية للأشبيليات. هي تحاول أن تذهب إلى أعماق التاريخ وتغوص في أغواره بحثاً عن إعادة تلك الأسمار التي كانت تشارك فيها المرأة مشاركة فعّالة، تريد أن تثبت دور المرأة الأندلسية لتفند تلك المقولة التي تقول: «إن الأندلس كانت مسلمة وأن الإسلام اضطهد المرأة!!» لهذه الأسباب أخذت بابن سعيد من قلعته وجمعته بحفصة وبالْكُتُنْدِي من وادي آش والرّصافي من بلنسية، واللص من اشبيلية، جمعتهم كلهم في قصر حَوْرِ الْمُؤَمَّلِ على ضفة وادي «شَنِيل» وجلست تسترق السمع ثم تحاول أن تربط بين ماض مضى ولم ينقطع وحاضر يسوده الاضطراب ويحوم في سمائه الضباب. لنسمع إليها في مستهل حديثها عن الأندلس عامة وعن غرناطة بوجه خاص. تقول: «عندما أفتك الموحدون غرناطة من المرابطين في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي، أرسل الخليفة عبد المؤمن أحد أبنائه الذي يُدعى عثمان ويُكنّى بأبي سعيد حاكماً للمدينة. إن هذا الأمير الشاب المحنك رغم حداثة سنه صقلته تلك الحملات العسكرية المتعبة التي كان يقودها. وفجأة وجد نفسه في غرناطة بعيداً عن تلك الوصاية الأبوية الصارمة. وعن ممرات الأطلس الصحراوي الشاقة أو تلك الصحاري القاحلة التي تقع في جنوب مراكش، إلى جنة وارفة الظلال وطبيعة مسرفة في الحدائق والعيون. وجوّ ثقافي لطيف وضع نواته الأولى آخر حكام المرابطين. ذلك الجو الذي برزت فيه نخبة من الشعراء في مستوى المخزومي [4] ونزهون القلعية [5] وابن قزمان القرطبي [6].

إن الأمير الشاب مع مرّ الزمان فضّل أن يحيط نفسه برجال الأدب وبالأخص الشعراء المشهورين عصرئذ والذين كانوا بجانبه بطريقة أو بأخرى، لقد منحهم مناصب سياسية وإدارية وخوّل لهم امتيازات، ونالوا منه حظوة وتمتعوا بحياة سارّة لذيذة وممتعة. ومن أجل هذا عمل على أن يكون الجو في قصره مناسباً وأكثر

جاذبية للشعراء البارزين والأدباء والعازفين والصيادين، أو قل جميع هواة الفن، ووفّر لهم كل ما يحتاجون إليه بما في ذلك الخمرة، بهذه الطريقة كوّن مجمعاً أدبياً حوله، لو كان في عهد ملوك الطوائف لحسدوه عليه.

لقد كان الشعراء المبرزون يكونون حلقات في هذا القصر مثل الرُّصَافي والْكُتُنْدِي وابن نِزَار وابن جبير والْمَواعِيني... الخ. ويبرز في وسط الكل أبو جعفر أحمد بن سعيد بمكانته الاجتماعية والثقافية، وبمواهبه الشعرية أيضاً. وهو أحد الشعراء البارزين في إسبانيا العربية الذين دخلوا تاريخ الأدب العربي بعلاقته الغرامية مع حفصة بنت الحاج الرّكُونِيّة التي انتهت علاقاتهما الغرامية نهاية «تراجيدية»، تشبه إلى حد ما عشق جميل لبثينة بالمشرق [7] أو عشق ابن زيدون لولادة بنت المستكفي بالأندلس [8]. لكن تلك الأسباب التي دفعتهما إلى أن ينالا تلك الشهرة كعاشقين خالدين والتي اجتمعت دائماً في شخص حفصة جعلت هذا الغرام غامضاً فيما بقي من إنتاج أبي جعفر الشعري وقصائده التي وَجَّهها إلى معشوقته قليلة جداً إذا قورنت بقصائده الأخرى التي يتضمنها انتاجه. والرجل له عدد هام من القصائد المتناثرة في المصادر العربية، وأن البعض منها لا نملك عنها معلومات، وأن أبا جعفر لم يكن شاعراً متكسِّباً أو على الأقل نظرياً ـ لقد كان رجل دولة، سياساً موجّهاً من طرف والده ليشغل مناصب هامة في الإدارة، وانه مكتوب عليه ذلك منذ نعومة أظافره.

وبالنسبة إليه فإن الشعر كان أحد رغباته، ولم يكن من أهدافه. وهذه إحدى الأسباب التي لم تتركه يجمع شعره في ديوان، والسبب الثاني هو موته المبكر، لربما لو لم تكن تلك الأحداث التي عجّلت بموته وبطريقة عنيفة وتركته إلى أن وصل إلى سن النضج الذي وصل إليه بعض أعضاء عائلته، لكان هو نفسه اختص بجمع انتاجه الشعري. لكن موته المبكر جعل حداً لتلك العبقرية الأدبية. وأن أشعاره التي وصلتنا مبعثرة هنا وهناك في المصادر الأدبية. فأغلبها لا يصل كاملاً مثل ما نعثر عليه في المغرب [9]. والإحاطة [10] وخاصة في نفح الطيب الذي أعطانا نظرة أكثر اتّساعاً وشمولية.

من هو ابن سعيد؟ ترتفع سلالة بنو سعيد إلى عمار بن ياسر (رضي الله عنه) أحد الصحابة الذين رافقوا الرسول ﷺ في كل المعارك. ولقد ضيّع في إحداها

أذنه، وبعد مدة عيّنه الخليفة عمر (رضي الله عنه) حاكماً على الكوفة. واستمر في جهاده إلى أن سقط شهيداً في معركة صفّين محارباً في صفوف جيش الخليفة الرابع علي بن أبي طالب ـ كرّم الله وجهه ـ. بعد هذه الحادثة جاء عبد الله بن سعيد حفيد عمّار بن ياسر إلى الأندلس على رأس المتطوعة اليمانية ضمن جند دمشق بطلب من والي الأندلس، يوسف بن عبد الرحمان **الفِهْري** لمحاربة عبد الرحمان الداخل الأموي نظراً لما كان معروفاً من منافسة بين ذرية عمار بن ياسر وبني أمية بعد موت معاوية. وبعد أن انتصر عبد الرحمان الداخل انسحب عبد الله بن سعيد إلى قلعة يحصب حيث استقرت القبيلة اليمانية. وهناك أعلن استقلاله. ومع مرّ الأيام تغير اسم القلعة فأصبحت تُدعى (قلعة بني سعيد بدلاً من قلعة يُحْصُب). ومن ذرية عبد الله بن سعيد نجد أبا بكر محمد حاكم غرناطة في عهد المرابطين والذي حسب ما يبدو في النصوص الأدبية انه كان على علاقة مع الشاعرة تَزْهُون الْقَلْعِيَّة. وخاصة عبد المالك ابن سعيد والد أبي جعفر الذي يُعد من ألمع الشخصيات عصرئذ والذي يعود إليه الفضل في بروز بيت بني سعيد.

لقد كان هذا الأخير في خدمة المرابطين ككل أعضاء عائلته. كما كان وزيراً ورجل ثقة ليحيى بن غانيةاللمتوني وبعد وفاة هذا الأخير إنحاز عبد المالك إلى القلعة وأعلن استقلاله، وبعد مجيء المُوحدين كان قد أعدّ عدّته وقرّر الإذعان لهم. لكن قبل اعترافه بهم لا نعلم إن كان قد حاربهم أم لا؟.

لكن عبد المؤمن سجنه لمدة قصيرة وبطريقة رمزية فقط. فعل ذلك تقديراً للشرفاء الأندلسيين. وهذا ما عبّر عنه ابنه أبو جعفر في قصيدته التي نظمها أثناء سجن والده.

مولاي أن يحبسك خير خليفة
فبذلك فخرك واعتلاء الشأن
فالجفن يحبس نوره فن غبطة
والمرهفات تصان في الأجفان
فابشر فنزع الدرّ من أصدافه
يعليه للأسلاك والتيجان

والعين تحبس دائماً أجفـــــــــانها
وهـــدايـــة الإنســــان بــــالانســـان
والطـــرس يختم مـــا حواه نفـــاسة
ويهان مـــــا يبــــدو من العنوان
فــأهنــأ بــه لكن مليّــاً مكثــه
سجنـــاً لغير مـــذلـــة وهوان
فلتعلون رغـــم الأعـــداء بعـــده
بـــذرى الخليفـــة في ذرى كِيوَان

ويتبع هذه الأبيات بكلام منثور طويل يبدو من خلاله الفرحة التي غمرته، وأشعاراً مقتبسة من قصائد المتنبي وعلى الْجَهْم. ومهما يكن فإن الخليفة أطلق سراح عبد المالك وعاد إلى قلعته وعندما تقابل مع ابنه أحمد أنشد الإبن هذين البيتين:

طلعت علينـا كـالغـزالـة بـالضحى
وعـــزك طمّـــاح ووجهك مشرق
فغفــرا لــذنب الــدهـر أجمـع أنــه
أتى اليوم من حسنـاه مـا هو أليق

وفي سنة 555 هـ ـ 1160 م نجد عبد المالك بن سعيد يترأس وفد أعيان غرناطة ليقدموا تهانيهم للخليفة عبد المؤمن بمناسبة حلوله جبل طارق[11]. ولقد رافق أبو جعفر أباه في هذه الرحلة وألقى قصيدة أمام الخليفة، ومن ذلك الحين اتخذ الشعر ميداناً وأصبح شاعر البلاط الغرناطي. ولولا أن الموت لم يُعجل به لكان من المحتمل أن يكون له بين أيدينا اليوم انتاج غزير.

أما عن ولادته في المكان والزمان، فإننا لا نملك معلومات كافية ودقيقة، فحسبَ ابن عمه[12] الذي نشأ معه فإنه يكون قد وُلِدَ بين سنتي 520 هـ ـ/1126 م و530 هـ/1135 م. وتوفي سنة 559 هـ/1163 م، أما بالنسبة لمكان الولادة فمن المحتمل أن يكون وُلِدَ بقلعتهم، أي في القصر العائلي، وقد يكون في غرناطة حيث كانت أفراد عائلته تشغل مناصب حكومية هامة. كما أننا لا نملك معلومات كافية

تفيدنا عن طفولته ودراسته الأولى وحتى عن الأساتذة الذين ساهموا في تكوينه.

وعلى العكس فإن حياة أغلب الشعراء أهتم بها أصحاب التراجم وقدّموا لنا قوائم طويلة تتضمن أسماء أساتذتهم والنظام الذي أخذوه والتزموا الصمت تجاه أبي جعفر بن سعيد.

هناك بعض المصادر تقول: انه تتلمذ عن ابن خفاجة[13] وابن الزقاق[14] وهما شاعران من مشاهير شعراء شرق الأندلس، وعليهما أخذ الأوزان والعروض. ولكن هذا الخبر يبقى من بين الاحتمالات لعدة أسباب ليس موضوع شرحها هنا. والراجح إنه تتلمذ وتأثر بهما عن طريق أشعارهما، وهذا هو الرأي القريب من الصواب، ويبدو خاصة في الأسلوب والمواضيع والوصف والإستعارة والمجاز. كما أن البيئة والجو الذي نشأ فيهما أبو جعفر كانا مناسبين لذلك، وخاصة في ميدان الشعر وأعني بذلك وصول الْحِجَارِي[15] سنة 530 هـ ـ 1135م، وكذلك تأليف «المغرب» الذي شارك في تأليفه عدة أشخاص من أعضاء عائلته ابتداء من عبد المالك نفسه. كما يجب أن نضع في الحسبان إن أبا جعفر وأخاه منذ نعومة أظافرهما كانا قد تعودا على رؤية المثقفين والشعراء في منزلهما وكانوا يثيرون فيهما الرغبة والميل إلى الأدب والتاريخ، وعن طريق أشعارهم عرف أبو جعفر الشعر العربي القديم، كما تنبه إلى رجال التاريخ والأدب العربيين، واسماؤهم تبدو واضحة في أشعاره، لكن دون أن يصل إلى التقليد الثقيل الممل كما حصل لبعض الشعراء الأندلسيين[16].

ومهما يكن من أمر فإن المعلومات عن أحمد بن سعيد تبقى قليلة، فالذي نعلمه عنه يتصل بحياته في الفترة التي أعلن فيها أبوه استقلاله بقلعته. ومن المؤكد أن الأب في هذه الفترة بالذات كان قد تضايق من كثرة الانشغالات وأراد أن يتغيب بتواتر عن القصر ويتفرغ إلى مقارعة أعدائه، فعيّن ابنه أبا جعفر وزيراً ليقوم مقامه طيلة غيابه المتكرر. ويبدو أن أبا جعفر قبل هذا الاقتراح في بادئ الأمر امتثالاً وطاعة لأبيه.

كما أن هذا المنصب سيكون شرفاً عظيماً لهذا الشاب الْحَدَث، لكن بعد مرور فترة من الزمن أصبح عمله عادياً ووجد نفسه معزولة ووحيدة في هذا القصر العائلي، وتضايق من العمل الذي هو بلا شك «بيروقراطي» وإداري في الوقت

نفسه، كما أنه بعيد عن العاصمة غرناطة. تلك المدينة التي كان قد بدأ يبرز فيها شاعراً محاطاً بخِلاَّنه وأترابه الذين كانوا يقاسمونه هوايته.

نظراً لكل هذا كتب الشاب إلى والده أبياتاً شعرية يطلب منه فيها أن يعفيه من منصبه ويسمح له أن يعود إلى حياته السالفة.

مـــــولاي في أي وقت   أنـــال العيش في راحـــة
إن لم أنلهـــا وعمـــري   مـــا إن أنـــار صبـــاحـــه
مـــا في الوزارة حظ   لمن يـــري ارتيـــاحـــه[17]

إن هذه الأبيات تدل على طيشه وعدم اكتراثه كأغلب الشباب الثري الكسول الذي يفضل الحياة الرغدة بدون تعب، تلك الحياة التي تقدمها كبريات المدن لأمثاله ما لا توفره قلعة صغيرة وخاصة في وقت مشحون بالثورات. إذاً وجهة نظره كانت مختلفة تتسم بالضيق وأن أحزانه في عنفوان شبابه ناتجة عن مهمة كلف بها ولم يكن قد تهيأ لها بعد، ومن البديهي ان السياسة والحرب لا تستهويانه. لكنه في هذه الفترة كان يقاوم طموحاته في تقبل ما كتب له وأعده أبوه له. ومن الممكن أن الأب لم يضع في الحسبان رأي ابنه ورغبته. فالشاب يريد فقط أن يعيش لينظم القصائد ويشرب مع خِلاَّنه ويتمتع باللقب أفضل من منصب وشهرة وزير، فحريته كانت بالنسبة إليه فوق كل اعتبار، فهو يقول في قصيدة موجهة إلى والده:

أنني آتي مستغيثـــاً   فـــاتـــرك فـــديـــة سراحـــه[18]

ولقد وصلت هذه القصيدة إلى والده فقرأها ثم قال: «الله لم يستفد ويغتنم الفرص الطبيعية بل يميل إلى اللهو».

وأمضى على ظهر الرسالة: «قد تركنا سراح أنسك، وألحقنا يومك بأمسك»[19].

عاد بعد ذلك أبو جعفر إلى غرناطة وبدأ من جديد نشاطه الشعري وعلاقته الإجتماعية، وتحول في بضع سنوات إلى الرجل أكثر شهرة في المجتمع الغرناطي. ومن الممكن في ظرف هذه السنوات ـ بين مجيء الموحدين وقدوم السيد أبو سعيد. عندما

بدأ الشاعر علاقته مع حفصة، تلك العلاقة التي لعبت دوراً حاسماً في حياته وفي موته أيضاً، والتي خلّدت ذلك الحب الصادق العربي الأصيل.

لا يمكن أن نواصل كلامنا هذا عن حياة وانجازات أبي جعفر بدون أن تخصص موضوعاً عن المرأة التي احتلت مكانة معتبرة في حياة شاعرنا، والتي كانت دونما شك السبب غير المباشر في موته. والكلام عن حفصة بنت الحاج الركّونية يؤدي بنا إلى القاء نظرة عن غرناطة والمجتمع الغرناطي، فحفصة من جيل أبي جعفر وُلِدت سنة 530 هـ ـ 1135م وتعرفت على الشاعر في سن مبكرة، ومن المحتمل أن تكون غرناطة آنذاك مدينة كبيرة. وحفصة والشاعر كلاهما ينحدران من طبقة اجتماعية واحدة، وهي طبقة الأثرياء والأشراف الغرناطيين، وإن كان الاختلاف في الأصل، فالشاعر من المشرق الإسلامي كما مرّ معنا، وهي من أصل بربري ويمكن أن يكون أجدادها جاءوا مع الزيريين في القرن الحادي عشر. لكن الذي لا شك فيه أنها من عائلة شريفة وميسورة الحال، حسب مترجمي حياتها (ابن دِحْيَة والمُلَحي) وإن كانت عائلتها لا ترتقي إلى مستوى عائلة بني سعيد.

إننا لا نملك معلومات كافية توضح لنا كيف ومتى التقيا وتعارفا. لكن الذي يبدو أكثر احتمالاً ان علاقتهما بدأت بطريقة عاطفية قوية في السنوات التي بدأ فيها السقوط النهائي للمرابطين وتمرّد عبد المالك بن سعيد في قلعته.

الأسمار التي كانت تحييها حفصة وابن سعيد:

لقد كان أبو جعفر آنذاك قد أتم تكوينه وتحوّل إلى شخصية بارزة في المجتمع الغرناطي ثروة، وشباب، وثقافة وانتسابه إلى أهم العائلات في المنطقة!. حفصة بدأت تظهر أيضاً كشاعرة في الاجتماعات والندوات الأدبية . وجمعت كما يقول مترجمي حياتها الجمال الفائق والتكوين الجيد. وكانت لها قدرة خارقة للعادة على نظم الشعر لأن هذا الميدان عصرئذ كان بمثابة البطاقة التي تقدم وتبرز صاحبها في المجتمع. ومن المنطقي أن يركز أبو جعفر نظره على هذه الفتاة الشاعرة وأن يجذبها نحوه. ورغم أننا لا نعلم علم اليقين نوعية مبادرتهما في هذه العلاقة. لكننا نعلم أن أبا

جعفر كتب لها يدعوها إلى لقاء على انفراد. وإن حفصة لم تتكرم عليه بالرد لمدة شهرين. ومن الممكن أن حفصة تأخرت بالرد عن قصد حتى يتحمس عشيقها أبو جعفر أكثر، فتجاهلت رغبته وأصمّت أُذنيها لندائه. فعلت ذلك عندما تأكدت أن أبا جعفر قد جُرِح حقّاً وازداد اهتمامه وهيامه بها فكتب لها هذه الأبيات التي تناولتها مصادر عربية متنوعة وأرسلها مع غلامه: [20]

يا من أجانب ذكر اسمه وحبي علامه
ما ان ارى الوعد يقضي والعمر أخشى انصرامه
اليوم أرجوك لا أن تكون لي في القيامة
لو قد بصرت بحالي والليل أرخى ظلامه

° ° °

إن لم تُنيلي أريحي فاليأس يثني زمامه

بعد هذا ردّت عليه حفصة بقصيدة مشهورة تبدو في أسلوب عتاب وتنتهي بموعد لقاء.

يا مدّعي في هوى الحسن والغرام الإمامه
أتى قريضك لكن لم أرضى منه نظامه
أمدّعي الحب يثني الحبيب زمامه ؟
ضللت كل ضلال ولم تقدمك الزعامه

لكن هذه القصيدة تنتهي بلغز كما جرت العادة بين الشعراء العرب عصرئذ.

بالله في كل وقت يُبدي السحاب انسجامه
والزهر في كل حين يشق عنه كمامه
لو كنت تعرف عذري كففت غرب الملامه[21]

وعندما وصلت الرسالة إلى أبي جعفر بادر بتحديد الموعد في حديقته الواقعة في حَوْر اَلْمُؤَمَّلِ حيث كانت توجد السراديق التي يطلق عليها «الكمامة» وذهب هو

توّه إلى المكان، وبعد وقت قصير وصلت حفصة إلى حَوْرِ ٱلْمُؤَمَّلِ لأول لقاء مع العاشق الشاعر وأرادت أن تعاتبه، فقال:

دعِ عدّ الذنوب إذا التقينا ‏ ‏ ‏ تعالي لا نعدُّ ولا تعدّي

وجلس العاشقان في هذه الجنة الوارفة الظلال يتجاذبان أطراف الحديث ويتأمل كل واحد منهما مُحي الآخر عن كثب، حتى دخل عليهما رسول شاعر من فحول الشعراء الأندلسيين «الْكُتُنْدِي» المعروف وبيده رقعة وفيها هذه الأبيات:

أبا جعفر يا ابن الكرام الأماجد
خلوت بمن تهواه رغماً لحاسد
فهل لك في خلٍّ قنوع مُهَذّب
كَتُوم، عليم باختفاء المراصد
يبيت إذ يخلو المحب لحبه
ممتع لذات بخمس ولائد[22]

فقرأها أبو جعفر على حفصة فقالت: «لعنه الله!» قد سمعنا بالوارِشِ على الطعام والْوَاغِلِ على الشّراب، ولم نسمع اسماً لمن يعلم باجتماع محبيْن فيروم الدخول عليهما. فقال لها: «سميه لنكتب له بذلك»، فقالت: اسميه الحائل. لأنه يحول بيني وبينك، إن وقعت عيني عليه..، فكتب له على ظهر رقعته ما يلي:

يا من إذا أتاني ‏ ‏ ‏ جعلته نصب عيني
نراك ترضى جلوساً ‏ ‏ ‏ بين الحبيب وبيني؟
إذا كان ذاك فماذا ‏ ‏ ‏ تبغي غير قربي حيني
والآن قد حصلت لي ‏ ‏ ‏ بَعْدَ الْمِطَال بِديْني
فإذا أتيت فدفعا ‏ ‏ ‏ منها بكلتا اليدين
أَوَ ليس تبغي وحاشا ‏ ‏ ‏ لك أن ترى طَيْر بيْني
وفي مَبيتكَ بالخمس ‏ ‏ ‏ كل قبح وشين
فليس حقّك إلّا الخلو بالقمرين[23]

وكتب أبو جعفر هذه الأبيات التي أملتها عليه حفصة ثم ختم رقعته بهذه الأبيات:

سماك من أهواه حـــائــــل إن كنت بعد العتب واصل
مـــع أن لونك مـــزعج لو كنت تحبس بـــالسلاسـل

فأخذ رسول الْكُتُنْدِي هذه الرسالة وعاد من حيث أتى، لكنه وجد الكتندي قد وقع في مطمورة نجاسة، وصار هَتْكَةِ، فلما قرأ الرسالة، قال للرسول أخْبِرْهُمَا بحالي، فعاد الرّسول وأخبرهما بما وقع للكتندي، فكاد أن يُغشى عليهما من الضحك. وكتب إليه، ارتجالاً كل واحد بيتاً وكان البادئ أبو جعفر:

قـل للـذي خلصنـا منـه الـــوقـــوع في الخراء
أرجـــــع كما شاء الخرا يـــــا ابن الخرا إلى ورا
وان تعـــد يومــاً إلى وصلنـــا سوف تـــرى

ثم استمرا في سهرتهما التي كانت تُعدُّ من بين الأسمار التي تقام في غرناطة وأحوازها. ونَعُمَ بها الإثنان كعاشقين في حَوْرِ اَلْمُؤَمَّلِ على ضفاف نهر اشْنِيل، وقبل ساعة الفراق ارتجل ابن سعيد أبياتاً ذات شذا أزهار الأندلس، وخرير الماء، وتغريد الْقُمْرِي. واختلاط الرضاب بالعقار و.... لقد خلد هذا اللقاء في هذه الأبيات:

رعى الله ليلاً لم يـــــرح بمذم
عشيـــة وأرانـــا بِحَوْرِ مُـؤَمَّـــلِ
وقـــــد خفقت من نحو نجد أريجة
إذا نفحت هبّت بـــريـا القـــرنفـل
وغـــرّد قمري على الـــدّوح وانثنى
قضيب من الـــرّيحان من فوق جـــدول
يـــرى الـــروض مسروراً بما قـــد بَـــدَا لـــه
عنـــاق وضـــمٌّ وارتشـــاف مقبـــل

ولما كانت حفصة ذات مزاج يختلف عن عشيقها رأت في هذه الأبيات مبالغة في وصف هذه الليلة، فوقع لها شبه غضب مزدوج بدلال أنثوي، فردّت عليه بهذه الأبيات على البحر والقافية نفسها:

لعمـــرك مـــا سر الـــريـــاض يوصلنـــا
ولكنـــــه أبـــــدى الغـــــل والحسد
ولا صفـق النهـــر ارتيـــاحـــاً لقـــربنـــا
ولا غـــــرّد القمـــــري إلّا لما وجـــد
فلا تحسن الظن الـــــذي أنت أهلـــــه
فما هو فيـــه كـــل المواطن بـــالـــرشد
فما خلت هـــذا الأفق أبـــدى نجومـــه
لأمـــر سوى كيما تكون لنـــا رصـــد[24]

هذه نبذة عن الأسمار التي كانت تقام في غرناطة في ظل السيد عثمان ذلك الشاب الذي كان متأثراً بالشعر والأدب وأحاط نفسه بنخبة لا بأس بها، من هواة الفنون. إن هذه الأسمار التي تحيَ أحياناً في الهواء الطلق بالمتنزهات والمرتفعات التي كانت متوفرة بكثرة في أحواز غرناطة، مثل نجد، حور مؤمل، ضفاف وادي شنيل، والزاوية وغيرها. كما أن هناك بعض المصادر التي تشير إلى تلك الحفلات التي كانت تحيى في منازل الشعراء والحمامات وغيرها. ولقد أشار أبو جعفر إلى بعض الجلسات الأدبية التي كانت تحيَ بوادي آش والتي يصفها لنا بدقة.

الأسمار التي تحي في منزل أبي الحسن بن نِزار بوادي آش

لقد اجتمعت نخبة من الأدباء والشعراء يوماً في منزل أبي الحسن بن نزار بوادي آش. فلما احتفل مجلسهم وطابت لذاتهم قال أبو الحسن: «والله ما تمام هذه المسرة إلا حضور أبي جعفر بن سعيد. وهو الآن بوادي آش». قال أحدهم فوافقناه على ذلك لما نعلم من طيب حالتنا. فخلا في موضع وكتب له:

يـــا خير من يـــدعي لكـــأس دائـــر
ووجوه أقمار وروض نـــــــــــاضر
انـــا حضرنـــا في النـــدى عصـــابـــة
معشوقـــة من نـــاظـــم أو نـــاثر
كـــل مخلى للـــذي يختـــاره في الأمن
من نـــــاه لـــــه أو زاجـــــر
مـــــا ان لهم شغـــــل بفن واحد
بـــل كـــل مـــا يجري يفوق الخاطـــر
شدو ورقص واقتطـــاف فكـــاهـــة
وتعـــانق وتغـــامـــز بنواظـــر
وهـــم كما تـــرى بـــأفق أنجم
لكن لنـــا شوق لبـــدر زاهـــر[25]

ثم دبّجها بقطعة نثرية وصف فيها المجلس... «سيدي، لا زلت متقدما لكل مكرمة، هل يجمل التخلف عن نادٍ قام فيه السرور على ساق، وضحك فيه الإنس بملء فيه، وانسدل به ستر الصون، وفاء عليه ظل النعيم، وسفرت فيه وجوه الطرب، وركضت خيل اللهو، وثار قتام الندّ، وهطلت سحائب ماء الورد، وجلبت الكؤوس، كالعرائس على كراسي العروس المثقلة بالعاج والأبنوس... وعلى رؤوس الأقداح تيجان نظّمها امتزاج الماء بالراح، فطورا تستحي فيبدو خجلها، وطوراً تَمْتَزِجُ فيظهر وجلها، والعود ترجمان المشرة قد جعلته أمة في حجرها، كولد ترضعه بدرها، وساق الشرب كالغصن الرطيب، وأوراقه أردية الشرب، وأزهاره الكؤوس التي لا تزال تطلع وتغرب كالشموس ساق يفهم بالإشارة حلو الشمائل عذب العبارة، ذو ظرف سقيم، وخدٌّ كأنه من خفره لطيم، ولدينا من أصناف الفواكه والأزهار، ما يحار فيه الناظ. وهل تكمل لذة دون إحضار خدود الورد، وعيون النرجس، واصداغ الأنس، ونهود السفرجل، وقدود قصب السكر، ومباسم قلوب الجوز، وسرور التفاح، ورضاب ابنة العنب، فقد اكتمل بهذه الأوصاف المختلسة من أوصاف الحبائب والطرب»:

فطـــر بجنـــاح الشوق عنـــد وصولها
إليك ولا تجعـــــــــل سواك جوابها
فلا عين الا وهي تـــرنو بطـــرفهـــا
إليك فيسر في المطـــــال حســـــابها
فقـــد أصبحت تعلو عليهـــا غشـــاوة
لبعـدك فـاكشف عن سنـاهـا ضبـابها

فقال أبو جعفر بن سعيد: فجعلت وصولي جواب ما نظم ونثر، وألقيت للحالة عن خُبْرِها الخَبَرَ، فانغمسنا في النعيم انغماس عرف الزهر في النسيم، ومرّ لنا يوم غض الدهر عنه جفنه، حتى حسبناه عنوانا لما وعد الله تعالى به في الجنّة». ألا ترى هذا الوصف للنباتات والمأكولات والجو اللطيف والتسامح الذي كان يسود المجتمع الأندلسي عامة والغرناطي على وجه الخصوص.

من الملتقيات الأدبية التي كانت تُحيَ بالزاوية

اجتمع أبو جعفر وابن نزار والكنتدي في حديقة الزاوية، وكان بهذه الحديقة جُبّ بجانبه بركة ماء، وقد أحدقت بها أشجار النارنج والليمون، وفواكه وورود في أكمامها، وأخرى متفتحة، ويعلو هذه البركة نافورة في شكل راقصة تدور بين خيوط الماء المتدفق، ويعلو هذه النافورة صحن من مرمر في شكل خِباء نُصِبَ على البركة. إن هذا المنظر الجميل والغريب في الوقت نفسه جلب انتباه هؤلاء الشعراء الذين نشئوا في وسط الفن وشاركوا فيه مشاركة فعّالة... فقرروا إذاً ارتجال على البديهة شعراً في وصف هذا الجُبِّ وما يحتوي عليه ويحيط به، وقسّموا الأدوار التي يقوم بها كل شاعر في وصف كل من الراقصة والخِباء والبركة، فاختص أبو جعفر بوصف الراقصة:

وراقصـــــــــة ليست تحرك دون أن
يحركهـــــــا سيف من الماء مصلَّت
يـــدور بها كـــرهـــا فتنضى صوارهـــا
عليـــــه فلا تعيـــــا ولا هو يُبهَتُ

إذا هي دارت سرعـــــة خلت أنها
إلى كـل وجـه في الـريـاض تلفت

وجاء دور ابن نِزّار في وصف الحباء الذي يتألف من الصحن الرخامي. فقال:

رأيت حبـاء الماء تـرسل مـاءهـا
فَنَـازَعَهَـا هَبُّ الـرّيح دِرَاءَهَـا
تُطاوِعـــه طوراً وتعصيــه تـارةً
كـراقصـة حَلت وضمت قبـاءهـا
وقـد قـابلت خير الآنـام فلم تَـزَل
لـديـه من العليـاء تبـدي حيـاءهـا
إذا أرسلت جـودا أمـــام يمينـــه
أبى العـدل إلا أن يـردّ أبـاءهـا

وفي الأخير ارتجل الْكُتُنْدِي يصف الجبّ، فقال:

وصهـــريـج تخال بـــه لجينـــاً
يُـذَابَ وقـد يُـذَوَّبُ الأصيـل
كـأن الـروض يعشقـه فمنـه
على أرجـائـه ظـل ظليـل
وتمنحـــه كف الشمس عشقـــاً
دنـــانيرا فمنـــه لها قبول
وللنـــــارنج تحت الماء لما
تبـدي عكسهـا جَمْـرُ بَلِيـلُ
ولليمون فيـــــه دون سبك
جلاجـل زُخْـرُف بصبـا تَجُول
فيـا رَوْض صقلتـه جفوني
وأرهـف متنـه الزهـر الكليـل

ثم أضاف قائلاً:

تنـــــائـــــر فيك أسلاك الغوادي
وقبـــل صفح جـــدولك القبول
ولا بـــــرحت تجمـــــع فيك شملاً
من الأكيـــاس والكـــأس الشّمُول
بـــــــــــــدور تستنير بها نجوم
من الأصبـــــــاح ليس لها أفول
يهيم بهم نسيم الـــــروض ألفـــــا
فمن وجـــــد لـــــه جسم عليـــــل[26]

الأسمار التي كانت تحيَ في حور المؤمل على ضفاف نهر أشنيل

هذا اللقاء تم في يوم كان فيه فريق من الشعراء مجتمعاً، وكان من بينهم الكتندي، والرصافي البلنسي وقرروا أن يقوموا بجولة بضواحي غرناطة بغية التنزه وشحذ الأذهان ـ على حد قول المقري ـ ومن المحتمل أن تكون هذه الجولة نظمت على شرفَ ابن سعيد رغم أننا لا نملك دليلاً على ذلك. فأخبروا الشعراء بغياب أبي جعفر، وقرروا أن يراسلوه بأبيات شعرية، كما جرت العادة، تكون بمثابة استدعاء لهذه النزهة، فساهم الجميع في صياغتها، ووضعوا جميعاً امضاءاتهم في أسفل الرسالة، ومن هذه الأبيات التي تتضمنها هذه الرسالة ما يلي:

بعثنـــــا إلى ربّ السماحـــــة والمجد
ومن مـــآلـه في ملـة الطـرف من نـدّ
يسعـــدنـــا في الصبيحـــة في غـــد
لنسعى لحور المؤمـــــــــــل أو نجد
نسرحُ منـــــا أنفسنـــــا من شجونها
تَمُوتُ في شجون هن شرّ من اللحـــد

ونظفر من بخل الزمان بساعة
الذُّ من العليا، وأشهى من الحمد
على جدول ما بين الفاف دوحة
تهز الصَّبا فيها لواء من الرند
ومن كان ذا شرب يخلى بشأنه
ومن كان ذا زهد تركناه للزهد
وما ظرفه يأبى الحديث على الطلى
ولا أن يديل الهزل حينا من الجد
تهز معاني الشعر أغصان ظرفه
ويمرح في ثوب الصبابة والوجد
وما نغص العيش المهنأ غير أن
يمازجه تكليف ما ليس بالود
نظمنا من الخلان عقد فرائد
ولما نجد الاكّ واسطة العقد
فماذا تراه لاعدمناك ساعة
فنحن بما تبديه في جنة الخلد
ورشدك مطلوب وأمرك نحوه ار
تقاب وكل منك يهدي إلى الرشد[27]

هناك إشارة واضحة إلى الشاعر الرُّصافي اَلْبَلَنْسي رغم انها موجهة إلى أبي جعفر، لأن الرصافي أظهر عدم الرضى في المشاركة في الملذات التي تعوّد عليها هؤلاء من شرب عقار ولعب ونساء ومزاح وغيره، وذلك لنزعته الزهدية وقناعته، عكس مزاج هذه المجموعة النشيطة في القول والفعل.

فردّ عليهم أبو جعفر بن سعيد في حينه وبنفس البحر والقافية:

هو القول منظوماً أو الدر في العقد
هو الزهر نفّاح الصبا أم شذا الود

أتتني وفكـــري في عقـــال من الأسر
فحل بنفث السِّحر ما حلّ من عقد

* * *

وأيقنت أن الـــدهـــر ليس بـــراجـع
لتقـــديم عصر أو وقوف على حـــد
فكـــل آوان فيـــه أعلام فضلـــه
تـــرادف موج البحـــر رداً إلى ردّ

* * *

فيـــا من بهم تـــزهى المعـــالي ومن لهم
قيـاد المعـالي مـا سوى قصدكم قصدي
فسمعـــاً وطوعـــاً للـــذي قـــد أشرتم
بـه لا أرى عنـه مـدى الدهر من بد
فقوموا على اسم الله نحو حـــديقـــة
مقلـــدة الأجيـــاد موشيـــة البُـــرد
بها قبـــة تـــدعى الكمـــامـــة فـاطلعوا
بها زهـــــراً أزكى نسيم من النـــــد
وعنـــدي مـــا يحتـــاج كـــل مؤمـــل
من الـــراح والمعشوق والكتب والنَّـــرْدِ
فكـــل إلى مـــا شاءه لسْتَ ثـــانيـــا
عنـــانـــا لـــه ان المساعـــد ذو الود
ولست خليـــاً من تـــأنيس قينـــة
إذا مـــا شدت ضل الخلي عن الـــرشد
لها ولـــد في حجـــرهـــا لا تـــزيلـــه
أوان غنـــاء ثم تـــرميـــه بـــالبعـــد

فيـــا ليتني قد كنت منهـــا مكـــانـــه
تُقَلّبني بين خصر إلى نَهْـــــــــــد
ضـمنت لمن قـــــال إني زاهـــــد
إذا خـلّ عنـــدي أن يحول عن الـزهـد
فــإن كـــان يـرجو جنــة الخلــد آجلاً
فعنــدي لــه في عـاجـل جنــة الخلــد

نلتمس من هذه الأبيات معلومات هامة في مستوى أهمية هذا المقال. فهو يوضح لنا مدى إخلاصه وكرمه إلى أصحابه، وأيضاً يصف لنا حديقته حور الْمُؤَمَّلِ وما تحتوي عليه من فواكه وورود ومياه مُتدفقة وموسيقى، وعقار، كما أنه يمزح مع الشاعر الرصافي، يُرَغبه في القدوم ويؤكد له أنه يحترم زهده، وفي نفس الوقت يرغبه في المشاركة الكاملة. ومهما يكن من أمر فإن الرصافي خضع لإغراءاتهم، وركب الجميع خيولهم، واتّجهوا إلى جنة حور المؤمل حيث قضوا أحسن يوم على ما اشتهوا، وما زالوا بالرُّصافي إلى أن شارك في كل شيء، ولما غلب عليه الطرب أنشد الكتندي:

غلبنـــاك عمّـــا رُمتـــه يـــا ابن غَـالِب
بِـــــرَاحٍ وَرَيْحَــــان وشَذْوٍ و كَوَاعِبِ

وأنشد أبو جعفر بن سعيد:
بـــدا زهــده مثـل الخُضـاب فلم يـزل
بـــه نـــاصلاً حتى بـــدا زُور كـــاذب

وعندما انتهت هذه الندوة التي كانت بدون شك مرضية للغاية مع غروب الشمس، أنشد أبو جعفر شعراً يصف هذا اللقاء الذي جمعه بخلّانه:

لله يــــــــــــوم مسرة	أضوا وأقصر من ذُبـــالـــة
لما نَصَبْنَـــــــا لِلْمُنَى	فيـــه بـــأوتـــار حبـــالـــه
طـــار النهـــار بـــه كمــــر	تـــاع فـــأجفلت الغـــزالـــة
فكـــأننـــا من بعـــده	بعنـــا الهدايـــة بـالضلالـة(28)

ولقد كانت هذه الملتقيات والأسمار الأدبية لا تخلو من الخمرة والأقداح والساقي في كل وقت. ولقد خلدها أبو جعفر بن سعيد بشعر كثير كان يتغنى فيه بهذا السائل الذهبي، ومنه قوله:

ألا هـــاتها إن الْمَســـرّة قـــربها
ومـــا الحزن في توالي جفـــائها
مـــدام بكى الإبـــريق عنـــد فـــراقهـــا
فـأضحك ثغـر الكـأس عنـد لقائهـا

لقد نقل لنا المقري في نفحه أخباراً عن هذه الملتقيات التي لا تخلو من خمر وموسيقى وشعر، والتي اتخذت لها ميداناً حدائق غرناطة وإشبيلية.

الأسمار التي كانت تحي بضفاف الوادي الكبير بإشبيلية

لقد ذهب أبو جعفر إلى اشبيلية رفقة والده وخلّانه، ففتن بنهرها، فعاش أياماً في خلاعة تامة، لقد كان صاعداً نازلاً في حدائقها ومنتزهاتها، وفي إحدى الليالي مَرَّ الشاعر بـ«طَرْيَانَة» واتّجه نحو منتزه حيث سمع طرباً فتوقف وأسند صدره على الزورق الذي كان يقله وخلانه، وأخرج رأسه من بين قضبان الجسر ليلتقط تلك الأنغام الموسيقية، فإذا بأحد الأنذال الذين تعودوا على الطرافة والنكتة أخرج رأسه من شَرْجَب ووجّه له كلاماً بذيئاً، فردّ عليه أبو جعفر قائلاً: «أيها الأبلهُ، السخيف، كيف يمكنك أن تتجرأ وتكلمني هكذا دون أن تعرفني» لكنه استمر في إيذائه مرة ثانية، حتى أن أصحاب أبي جعفر تفرقوا قائلين له: «لم تسمع قبل بأن كل من يأتي إلى هذا الوادي يتعرض إلى هذا وأشياء أخرى مشابهة إلى هذا».

فبقي أبو جعفر يتأمل برهة ثم ارتجل قائلاً للوادي الكبير:

نهر حِمص لا عَـــدِمنَـــا ك فما مـــثـــلك نهر
فيك يلتـــذّ ارتيـــاح أبـــد الـــدهـــر وسكـــر
كـــل عمـــر قد خلا منك فما ذاك عمـــــــر
يلعن الإنســـان فيـــه وهو يصغى ويســـرّ

إن هذه المفاجأة غير السارة على ضفاف الوادي الكبير، كانت من ناحية أخرى سبباً في ربط صداقة متينة بينه وبين شاعر آخر من عمالقة الشعر في عصر الموحدين، ألا وهو أحمد بن سيده الشاعر الإشبيلي المكنى باللص.

لقد سأل أبو جعفر عن المكان الذي تلقى فيه شتماً، فقيل له أنه ملك لِلّص، وأنه هو الذي حرّض عليك ذلك الوغد ليوجه إليك شتماً. فنّظم أبو جعفر قصيدة يشكو من الذي حدث وَيُشيرُ فيها بأن الاثنين اسمها أحمد.

يـــــا سمي وإن أفـــــاد اشتراك
غير مـــا يـــرتضيـــه فضـــل وودٌ
أكـــذا يـــزدري الخليـــل بـــأفق
أنت فيـــــه ولم يكـن منك ردّ؟
لاأرى من سلّطت وغـــــداً ولكن
ليس يخفى عليك من هو وغـــــد

فردّ عليه اللص برسالة مطوّلة تتضمن شعراً ونثراً مُسَجّعاً، والتي سنتناول منها بعض الفقرات والأبيات.

اللص: «يا مولاي وسيدي وأجل ذخري للزمان وعضدي، الذي أفخر بمشاركة اسمه، وتتيه هذه الصناعة بذكره ورسمه:

وخير الشِّعْـــــرِ أشْرفـــه رجـــالا
وَشَرُّ الشّعـــر مـــا قـــال العبيـــد

سلاماً كنسيم، على ذلك المقام الكريم، ورحمة الله وبركاته، وأن كان مولاي لم يفاتحني بالسلام، ولا رآني أهلاً لمقاومة الكرام... فإني أقول:

فـــإن كنت ذا ذنب قـــد جئت تـــائباً
ومثلك غفّـــار ومثلك قـــابـــل

ولولا ما أخشى من التثقيل، وما أتوقع من الخجل إذا ألتقى الوجهان، لا أتيت حتى بلغت في الاعتذار بالمشافهة ما لا يسع القرطاس، لكنني متكل على حُلم سيدي وإعفائه، متوسل إليه في الغفران بعلائه، وكتب تحت هذه العبارات ما يلي:

ولا غرو أن تعفوا وأنت ابن من غدا تَعَوَّدَ عَفْواً عن كبار الْجَرَائِم

لكـــم آل عـمّـــار بيوت رفيعـــة
تشيـــد مـن كسب الثنـــاء بـدعـائم

إذا نحن أذنبنـــا رجونـــا ثوابكـــم
ولم نقتنـــع بـــالعفو دون المكـــارم

وانك فـــرع من أصول كـــريمة
ولا تلـــد الأزهـــار غير الكمـــائم

وإني مظلوم لـــــزور سمعتـــــه
قـــد جئت أرجوالعفو في زي ظـالم

فأجابه أبو جعفر بما يليق بمقامه ويدل عن غفرانه، وربط معه مراسلة شعرية يدعوه إلى لقاء في إحدى متنزهات جزيرة «شِنْتَبُوس» وهي قرية على ضفاف الوادي الكبير يقول:

قـــم فـــاسقيني والخليج مضطـــرب
والـــــريح تثني ذوائب القُضُب

كـــأنها والـــريـــاح تعطفهـــا
صف قنـــا سنـــدسيـــة العُـــذُب

في حلـــــة مُمَسَّكـــــة
قـــد طـــرّزتها البروق بـــالـــذهب (29)

في هذا المكان الذي يمثل بحق جنة وارفة الظلال اجتمع الشاعران وأقاما جلسة من أمتع الجلسات، وقل هي سهرة طيلة الليل إلى أن جاء الصبح وهما بين كأس وارتجال الشعر. فكان هذا الحوار الشعري ممتعاً. وأنك تستطيع أن تجزئه إلى ثلاث حسب أوقات اللقاء يستلهمان الغروب والليل والفجر. على أن تدوم هذه المُسَامرة الأدبية حتى انبلاج الفجر لليوم الثاني - في هذه المسامرة الأصيلة التي اتخذت الرجز ميداناً لها. بين الإثنين. كان كل واحد منهما يبرز طاقته وذكاءه وفصاحته على نفس البحر والقافية. وهذا النوع من الشعر ليس جديداً وإنما هو من أصالة الشعر العربي الذي يمتاز. بالطراوة والطواعيةالخالصة بالإضافة إلى العفوية وجمال التصوير.

وصف غروب الشمس

أبو جعفر: أنظر إلى الشمس قد الـ ـصقت على الأرض خَدّا
اللص: هي المرآة، لكن من بعدها الأفق يصدّا
أبو جعفر: مدّت طرزا على النّهر عندما لاح بُرْدا
اللص: أهدت لطرفك منه ما للأكارم يُهْدى
أبو جعفر: درعُ اللجين عليه سيف من التّبر مُدّا

وصف الليل:

اللص: أخلع على النّهر ثوب الـ ـكرى فذلك واجب
أبو جعفر: وانظر إلى السرج فيه كالزهر ذات الذوائب
اللص: وحين صفقت للأفـ ـق نُقّطَتْهُ الكواكب
أبو جعفر: أيُّ عيش يهتك الـمَسْـ ـتور لو كان ابن أدهم
اللص: هكذا العيش ودعني من زمان قد تقدم
أبو جعفر: حين لا خمر سوى ما بكؤوس البيض من دَم
اللص: أسقيني والأفق برد بنجوم الليل مُعلم
أبو جعفر: وبساط النّهر منها وهو فضيّ مُدَرْهَم
اللص: ورواق الليل مرخى والشذا بالروْض قد شَمْ
أبو جعفر: والندى في الزهر منثو ر على عقد منظم
اللص: والصّبا جرت على ميّـ ـت الطلى كَف ابن مَرْيَمْ
أبو جعفر: كان مَبْهُوتاً فَلَمّا نَفَخَتْ فيه تَكَلَّمْ
اللص: وكأن الكأس والقهـ ـوة دينار و دِرْهَمْ
أبو جعفر: وبدا الدّف يُنَاغي الـ ـعود والمِزْمَار هيمْ

وصف الصباح

أبو جعفر: نثر الطل عقوده ونَضَا اللّيل بُروده
اللص: وبدا الصُبح بوجه مطلع فينا سعوده

أبو جعفر: وغـــــــدا ينشر لما قتر الليـــــــل بنوده
اللص: فهلم اشرب وقبـــــــل من غـــــدا ينطق عوده
أبو جعفر: ثم صـــافحــه على رغـــم النّوى وأفـــــرك نُهُوده
اللص: واجعـــل الشكـــر على مـــا نلتـــه منـــه جحوده

بعد هذا البيت الأخير للص، قال له أبو جعفر ابن سعيد: «آه أبا العباس أنت تجرأت على التِّهامِ أبي الحسن اليمني (1025م)» فرد عليه اللص: «لماذا تعتقد أن اسمي اللص؟ إذ لم يكن كذلك...»[30].

هكذا كانت حياة أحمد بن سعيد كلها لهو وصيد وخمر. وهكذا انتهت حياته بفاجعة لم يكن يتصورها هو ولا عاشقته، ولا حتى السيد أبو عثمان الذي اتخذه صديقاً ونديماً له، ولكن جمال وفصاحة وجرأة حفصة وأناقة أبي جعفر قد اجتمعت في كل هذه العوامل لتجعل حداً فاصلاً ونهائياً لحياة هذا الشاب الشاعر المهذب. فالسيد وصل إلى غرناطة شاباً حدثاً أقل من حفصة بـ 14 أو 15 سنة. وإن كانت حداثة سنه لا تمنعه من تحمل المسؤوليات وقيادة الجيوش، لكنه كان يعتبر بالنسبة إلى أبي جعفر بن سعيد لا زال صغيراً ليكون منافساً له في ميدان الحب. ومن ناحية أخرى فعندما وصل السيد إلى غرناطة وجد حفصة على علاقة غرامية وأدبية مع أبي جعفر، وحتى عندما دعاها إلى بلاطه لإعجابه بهاكشاعرة وجميلة فقط لكن مع مرّ الأيام تحول أبو سعيد إلى رجل كامل الرجولة واع بمسؤولياته واثق من نفسه، ومحباً للفن عامة وللأدب بصفة خاصة، مغرماً بالشعر يريد أن يحيط نفسه بأهله. ومن الطبيعي فإنه في كل مرة يجد نفسه مُنْجَذِباً إلى امرأة مثل حفصة التي جمعت كل الكماليات التي يعشقها، ومهما يكن فإن العلاقة بين حفصة وأبي جعفر تغيرت لأسباب نجهلها. ومن المحتمل أن يكون السبب هو ميلها إلى السيد الحاكم. هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن حفصة انزعجت لتصرفات أبي جعفر. لقد خرج يوماً من غرناطة ولم يعد إلا بعد بضعة أيام، وقد اتهمته حفصة بأنه على علاقة مع آمة غَجَرِيّة. ولقد وجهت له عتاباً وسخرية وردّ عليها هو بقصيدة عاطفية وترضية. وأرسل لها باقة زهور بيضاء. ولكن هذه الأبيات والأزهار لم تجبر الخاطر.

والواقع أن حفصة كانت صادقة في حبّها له وأنها تريد أن تشوقه وأن تجعله غيّاراً، لذلك بدأت تقترب من أبي سعيد السيّد. حتى يشعر العاشق بهذا التقارب. ومن البديهي أن السيد حوّل نظرته من إنسان شغوف بجمال وذكاء حفصة فقط. إلى المنافس الحقيقي الذي يرى أنه أولى بحُبّها وعطفها. وأمام هذه التحولات في المواقف وقعت برودة من ناحية أبي جعفر بن سعيد تجاه حفصة ووجدت نفسها منجذبة بطريق غيرمباشرة نحو ذلك الشاب الخطير. ابن الخليفة وحاكم المدينة والملاطف لها في الوقت نفسه. والواقع ان ابن سعيد أحسّ بذلك وتصرّف تصرف المعتز بنفسه. ولم يقف عند هذا الحد بل بدأ يهاجم السيد بطريقة أو بأخرى، والسيد يغض النظر عما يصدر من الشاعر. ثم لم يتحمّل أبو جعفر البقاء في البلاط، فقدّم استقالته. لكن السيد رفضها. وعندما رفضها لم يستدرك الأمر أبو جعفر بل ازداد هياجاً وتَفوّهاً. وازداد عتابه لحفصة حتى قال لها يوماً: «... ماذا تحبيّن في ذلك الأسود وأنا أقدر أن أشتري لك من سوق العبيد عشرة خيراً منه بعشرين ديناراً». ألا ترى هذه السخرية اللاذعة والهجاء المقذع، فهو ينعت السيّد بالعبد وذلك لسمرته الشديدة.

فكل هذا الكلام كان يصل السيد فيضمره وينتظر أكثر منه. كما ينتظر أي فعل يصدر عن أبي جعفر بن سعيد ليكون حُجّة دامغة لوضعه عند حدّه.

إن كان هذا هو السبب للتنافر بين الرجلين، فما سبب اقتراب حفصة من شاب أصغر منها سناً، وأخطر شخص على الإطلاق في زمانه. فهو الشاب المحنك والمحارب المجرّب، والحاكم العسكري والمدني، وقبل كل شيء ابن الخليفة. إضافة إلى الأسباب التي ذكرناها والتصرفات التي كان يتصرفها أبو جعفر بن سعيد معها، هناك أحداث سياسية هزت غرناطة سنة 557 ـ 1062م. استطاعت أن تساهم في ذلك إلى جانب الجفاء والبرودة التي سادت العلاقات بين العاشقين. ذلك أن الخليفة عبد المؤمن زار جبل طارق. وخلال زيارته كلّف ابنه عثمان أبا سعيد ببناء الحُصْن والمدينة تحت صخرة جبل طارق. ثم بعد زمن قصير استدعاه إلى مراكش ليتدارك بعض الأمور الخاصة بالدولة. إذاً فغيابه عن غرناطة دام ما يقرب من سنة كاملة[31]، في تلك السنة غزا ابن مَرْدَنِيش الْمُتَمَرِّد ببلنسية غرناطة. وحاصرها قائده ابن هَمْشَكْ بجيشه الذي يتكون في أغلبيته من النصارى. مدعماً أيضا من النصارى واليهود المقيمين بغرناطة فاستولى على المدينة بدون مقاومة. نظراً لذلك أرسل الخليفة ابنه أبا سعيد عثمان إلى المدينة المحاصرة

ومعه حاكم اشبيلية بجيشه لكن هذه العودة لم تمكنه من إعادة مدينته، فعاد إلى مَالَقَه مُنْكَسِراً وانتظر الإمداد من قِبَل والده، فأرسل إليه جيشاً وعلى رأسه ابنه أبو يعقوب يوسف الأخ الأكبر للسيد أبي سعيد وسار الجيش في اتجاه غرناطة حيث ينتظرهم ابن مردنيش وصهره ابن همشك. وفي هذه المرة كان الحظ مخالفاً لما مضى، بالنسبة للمتمردين. لقد صعد جيش الموحدين ليلاً المرتفعات الموجودة بظاهر السَّبيكَة أين تقع الحمراء وبقى جيش عدوه، البعض منه أمام قصبة الحمراء والقسم الآخر على ضفة النهر الأخرى بجانب حي البيازين. فعندما هاجم جيش الموحدين على ثلاثة محاور، الحامية التي أمام القصبة، والتي بجانب البَيَّازِين، والمحور الثالث قسم جيش العدو في الوسط فانهزم العدو وعادت المدينة إلى السيد عثمان. فبطبيعة الحال أن حفصة من أصول مغربية وثقافة عربية إسلامية ومن طبقة متميزة اجتماعياً، لها أملاكها ومصالحها وكل هذه كانت في خطر عندما احتل المتمرد غرناطة بإيحاء من اليهود والنصارى. فالسيد له الفضل في تحرير المدينة، وتحرير المدينة بالنسبة لها هو تحريرها من الاستعباد. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن السيد كان قد اشتهر برعايته وحمايته للثقافة بصفة عامة والشعر والشعراء بصفة خاصة. لهذه الأسباب خلقت فيها عاطفة حب وشكر واعتراف بالجميل لِمُحَرِّر المدينة ومنشط الثقافة.

الواقع أن حفصة لم تهجر أو بعبارة أخرى تنفر من ابن سعيد كليّة، ففي الخفاء كانت دائماً في حبها له، وفي الظاهر تبدو القطيعة.

ولنسمع إلى أبي جعفر يُحدّثنا عن وفائها لحبها واستمرارها فيه يقول: «...أقسم ما رأيت ولا سمعت بمثل حفصة. ومن بعض ما أجعله دليلاً على تصديق عزمي... أنني كنت يوماً في منزلي مع من يحب أن يخلى معه من الأجواد الكرام على راحة سمحت بها غفلات الأيام، فلم تشعر إلا بالباب يضرب، فخرجت جارية مَنْ الضّارب، فوجدت امرأة. فقالت لها: «أدفعي لِسيِّدك هذه الرقعة، فجاءت برقعة فيها[32].

زائـــر قـــد أتى بجيـــد الغـــزال
مطلـــع تحت جنحـــه للهلال
بلحـاظ من سحـر بـابـل صيغت
ورضـــاب يفوق بنت الـــدّوالي

يفضحُ الورد ما حوى منه خدّ
وكـذا الثّغـر فـاضح للآلى
مـا تـرى في دخوله بعد إذن
أو تـراه لعـارض في انفصـال

قال: «فعلمت أنها حفصة، وقمت مبادراً للباب، وقابلتها بما يقابل به من يشفع له حسنه وآدابه والغرام به، وتفضله بالزيارة دون طلب في وقت الرغبة في الإنس به».

لقد كان ابن سعيد شعلة من الذكاء، شاعر مجيد وناثر مصيب، لكنه في نظري كان مغروراً أشد الغرور، بينما كانت حفصة متعقلة وهادئة، وأيضاً مقدرة للظروف التي كان يمر بها المجتمع الإسلامي الأندلسي عامة وغرناطة على وجه الخصوص».

نعود إلى ابن سعيد، بعد أن قدّم استقالته ورفضت بدأ يفكر في الهروب والانضمام إلى صاحب بلنسية، ابن مَرْدَنِيش المتمرد. وفعلاً نظّم نزهة خارج غرناطة، ظاهرها الصيد وباطنها الهروب، ولكن السيد كان محتاطاً نصب له كميناً ومسكه وزجّ به في السجن، وأثقله بالحديد، ورغم ذلك فإن أبا جعفر بن سعيد لم يلن بل بقي مصراً. هذا ابن عمه زاره في سجنه يحدثنا: «قد وجدت أبا جعفر مكبلاً وامام هذا المشهد لم أستطع أن أتحكم في دموعي فبكيت، فرد علي أبو جعفر بما يلي: «أعلي تبكي بعدما بلغت من الدنيا أطايب لذاتها، فأكلت صدور الدجاج، وشربت في الزجاج، ولبست الديباج، وتمتعت بالسراري والأزواج، واستعملت من الشمع السراج الوهاج، وركبت كل هملاج، وها أنا في يد الحجاج، منتظراً محنة الحلاج قادما على غافر لا يحتاج إلى عذر ولا احتجاج». فرد ابن عمه قائلاً: «أفلا يؤسف على من ينطق بهذا الكلام ثم يفقد.....».

ولقد زارته حفصة في سجنه ونظّمت عدة قصائد شعرية في ذلك، تدل على تأسفها لتلك العوامل التي حالت بينها وبينه، ولم تنته سنة 559 ـ 1163م حتى أن صلب الشاعر العاشق على يد صديقه ونديمه، وسمعت حفصة الخبر ولم تستطع أن تراه، فلبست الأسود حِداداً وانسحبت من بلاط السيّد، وأخذت التدريس مهنة لها، ولقد تأسف يوسف المنصور لما حدث وأراد أن يرفع من معنوياتها فعيّنها مسؤولة عن تربية

الأميرات المُوحِّدِيّات في قصر الخلافة بمراكش. وما كان على حفصة إلا أن لبّت نداءه رغبة منها في أن تنسى غرناطة مهد الشباب والإلهام و.... تلك الأسمار التي كانت تجمعها بنخبة من الشعراء والأدباء التي جادت بهم الأندلس الإسلامية.... غادرت تلك الجنة الوارثة واستقرت بجانب تلك الصحراء القاسية. ولكن فراقها للأندلس بجسدها لا بجوارحها، فذاكرتها لا زالت حيّة، وغرامها لا زال عالقاً بذهنها، فكانت تردد من حين إلى آخر تلك القصائد التي تعترف بحبها وحنينها إلى موطنها الأصلي ومصدر إلهامها، وصورة ذلك الشاب الشاعر الذي قاسمها الحياة. فلنسمع إليها لتلقي علينا تلك القصيدة المشوقة التي تعترف فيها بماضي مضى وانقطع، وهي تقول:

تنـــــائي على تِلكَ الثَّنَـــايَـــا لِأَنَّنِي
أقولُ على عِلْـــــــم وانْطُقُ عن خُبر
وأنْصِفُهَـــــــا لا أكـــــذب الله إنني
رَشَفْتُ بها ريقـــــاً أرقُّ من الخمــــــر

وظلت تلك الزهرة البيضاء التي أهديت لها زهوراً مماثلة ملازمة للون الأسود الفاحم حتى أن فارقت الحياة في مراكش بعيدة عن الأهل والوطن.

مات ابن سعيد وماتت حفصة وضاعت غرناطة الحسناء إلى الأبد!!! ولكن شعرهما ونثرهما لم يمت بعد.

■■■■■■

الهوامش:

(1) أبو علي عمر بن محمد الشلوبيني، عالم جليل توفي سنة 645ـ1247م، أنظر المقري، نفح الطيب، تحقيق محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ج 5، ص.ص 37ـ38؛ الزريكلي، الأعلام، ج 5 ص 224؛ ابن فرحون الديباج المذهب، صفحة 185؛ ياقوت: معجم البلدان، 5 ص. 290.

(2) ابن الجياب أبو الحسن علي بن محمد الأنصاري، وُلد بغرناطة سنة 1274م، توفي بها سنة 1349 م. أنظر المقري، نفح الطيب، ج.6، ص.326، غارتيه غومث أميليو، أشعار عربية، طبعة مدريد 1985، ص.ص 29ـ31.

(3) ابن مرزوق محمد بن أحمد العجيسي، وُلد بتلمسان سنة 710 ـ 1311م توفي سنة 781ـ1380م، أنظر ابن قنفذ، شجرة النور الزكية، ص. 436؛ بابا مسكي التنبكي، نيل الابتهاج، ص. 267. وانظر ابن خميس محمد ابن عمر الحجري الرعيني، أبو عبد الله التلمساني 625ـ1228 توفي 708ـ1309م، المقري أزهار الرياض، ج.2 ص.ص 30، 340.

(4) المخزومي أبو الحسن علي بن محمد البلنسي، شاعر وأديب ولد ببلنسية سنة 551ـ1156 توفي 622ـ1225، أنظر ابن الأبار القضاعي، التكملة لكتاب الصلة، ص.679؛ الزريكلي خير الدين، الاعلام ج.5، ص. 152.

(5) نزهون القلعية، أنظر المقري، نفح الطيب، ج. 6 ص.ص 31ـ33.

(6) ابن قزمان أبو بكر القرطبي، أنظر المقري، نفح الطيب، ج.5 ص.ص168ـ169.

(7) جميل بثينة بن عبد الله أبو عمر، أنظر الزركلي، الاعلام، ج.2 ص. 134، ابن جبير، الرحلة، ص. 206.

(8) ابن زيدون أحمد بن عبد الله الزريكلي، الاعلام، ج.1 ص. 151، ونفح الطيب للمقري، ج.5 ص. 105، وانظر نفس المصدر ولادة ص. 336.

(9) ابن سعيد صاحب كتاب: المُغرب في حلي المغرب.

(10) ابن الخطيب صاحب كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة، عدة أجزاء.

(11) عبد المؤمن الخليفة ونزوله بجبل طارق، أنظر المقري، نفح الطيب، ج.5 ص. 322.

(12) ثيليا ديل مورال، المصدر السابق.

(13) ابن خفاجة إبراهيم الهواري، شاعر الطبيعة وُلد بجزيرة شقر الواقعة بشرق الأندلس 450ـ1058 توفي 533ـ1138، أنظر المقري، نفح الطيب ج.5 ص.11.

(14) ابن الزقاق أحمد بن محمد المتوفي سنة 764 هـ. أنظر المقري، نفح الطيب ج. 5 ص. 150.

(15) الحجاري عبد الله بن إبراهيم المتوفي سنة 584 هـ. أنظر المقري المصدر السابق صفحة 111.

(16) ثيليا ديل مورال، المصدر السابق ص. 22.

(17) أنظر المقري نفح الطيب، ج.5 ص.ص 311ـ312.

(18) المصدر نفسه.

(19) أنظر ثيليه ديل مورال، المصدر السابق، ص. 305.

(20) المصدر السابق.

(21) نفس المصدر ص. 306.

(22) المقري، نفح الطيب، ج.5 ص.ص 306_307.
(23) نفس المصدر، ص.ص 309_310.
(24) المقري، نفسح الطيب، ج.5 ص. 43.
(25) نفس المصدر، ص. 43.
(26) نفس المصدر، ص.ص 44_45.
(27) نفس المصدر ص.ص 58_59.
(28) المقري، نفح الطيب، ج.5، ص.ص 324_332.
(29) نفس المصدر، ص.ص 326_332.
(30) المصدر نفسه.
(31) المصدر نفسه، ص. 311.
(32) المقري، نفح الطيب، ج.5 ص. 305.